

الوضعية الديمغرافية بالريف الشرقي

حتى منتصف القرن العشرين

علال الزروالي

Allal ZEROUALI

RESUME

L'implantation humaine, dans le Rif Oriental s'est caractérisée par l'instabilité démographique suivant les circonstances et les changements naturels, politiques et économiques. Ces changements ont été accompagnés par des mouvements de la population vers le Nord comme vers le Sud, ce qui a donné naissance à de nombreux antagonismes concernant l'acquisition de la terre. Celle-ci, malheureusement n'a pas été bien mise en valeur vu l'instabilité qui a caractérisée cette région depuis la fin du XIX^e siècle jusqu'à la moitié du XX^e siècle.

SUMMARY

Human implantation in the Oriental « Rif » is characterised by demographic instability following circumstances and natural, political and economic changes. These latters have been accompanied by some population movements to the North and the South. It therefore resulted in the birth of numerous antagonismes concerning land acquisition. Unhappily, this region was not put into account and remained instable from the end of the 19th century upto the first half of the 20th century.

مقدمة

مما لا شك فيه أن الاستيطان البشري بالريف الشرقي قديم جداً، والدليل على ذلك درجة استغلال وتنظيم المجال، أي طرق تهيئة الأرض وبناء المدرجات لخلق ظروف طبغرافية من شأنها إرساء التربة ورياح مشارات إضافية، ولعل في هذا دليل على وجود ضغط ديموغرافي . كما يمكن أن نستشف ذلك من خلال تنظيم السكن وتطوره التاريخي وتنظيم السقي بالمناطق المرتفعة. والشئ الذي لا جدال فيه كذلك أن تعمير المنطقة تم عبر مراحل

تاريخية طويلة، سواء بواسطة النمو الطبيعي أو عن طريق استقبال المهاجرين، حيث توافدت على الريف الشرقي عدة أسر عربية من عرب بني معقل وبعض الفرق الهلالية التي كانت متحالفة مع بني مريـن. فقد تدفقت عدة أسر على هذه المنطقة، وثمة " ... عوامل أخرى نعدّها أيضاً مسؤولة عن انتقال ستة وثلاثين أسرة وفرقة من المحور الشرقي" (1).

هذه القبائل لم تستطع أن تتميز بتنظيماتها ومجالها الخاص بها، و لكنها اندمجت وانصهرت في القبائل البربرية، كقلعية وامطالسة، وبني سعيد وبني توزين وكبدانة، وذلك بسبب قلة العرب الوافدين وكثرة السكان البرابرة الأصليين من جهة، ثم لأن هذه الأسر لم تهاجر دفعة واحدة، وإنما تمت هجرتها عبر مراحل تاريخية معينة، من جهة أخرى. وكيفما كان الحال، فقد ساهمت هذه الحركات في إعادة تعمير الريف الشرقي، لأنها حدثت في فترة تراجع فيها السكان كما سنرى ذلك لاحقاً.

١ - وضعية سكانية قديمة تميزت بانهيـار ديمغرافي كبير قبيل القرن 7 الهجري.

لقد مر الريف الشرقي بفترات صعبة وحرجة بفعل عوامل طبيعية، كتردد نوبات الجفاف وبفعل المجاعة والأمراض الوبائية، وطبعاً كانت تتخلل هذه الأزمات فترات من الرخاء والازدهار. ومعنى هذا أن الإنسان كان يعيش في رهان دائم مع الطبيعة، بحيث تتقلب بين العطاء والشح والنعيم والبؤس، وبعبارة أخرى فإن وفرة الطعام كانت تتوقف على كمية المطر، فإذا جادت السماء سارع الفلاحون إلى حرث أراضيهم وكان المحصول جيداً، أما إذا حدث الجفاف، تقلصت المساحة الزراعية وضعف المحصول أو بطل وانتشرت المجاعة وكل ما يمكن أن يترتب عنها.

ولا شك في أن لكل هذه الآفات انعكاسات سلبية على الوضعية الديمغرافية والحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا الإطار نتحدث بعض الكتابات عن التحول الذي طرأ على البنية الاجتماعية ببلاد القلوع بين القرنين السابع والعاشر الهجريين، وذلك على إثر معركة العقاب، التي انهزم فيها الموحدون سنة 609 هـ، والتي أودت بحياة نسبة كبيرة من سكان الريف الشرقي، إذ يبدو أنهم شاركوا فيها بقوة، ذلك أنه "أثناء

١ - حسن الفكـيكي: قلعية ومشكل الوجود الإسباني بمـنـيـلة. دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1984، ص. 63.

دخول المرينيين إلى قلاع الريف حدث انهيار ديموغرافي في ساكنة إقليم كرت نتيجة مشاركة الأغلبية من رجاله في معركة العقاب" ⁽²⁾.

وإلى جانب قلة المعلومات المتعلقة بهذا الأمر، فإننا نستبعد أن تكون هذه الحرب السبب الرئيس والوحيد المسؤول عن هذا الانهيار الديمغرافي، إذ لا يمكن إغفال مجموعة من العناصر الأخرى كالحركات الجهادية التي كان يشارك فيها الريفيون باستمرار بعبورهم البحر المتوسط نحو الأندلس، وذلك بسبب الموقع الجغرافي لبلادهم التي كانت مصدر انطلاق المجاهدين ثم لرغبة الريفيين أنفسهم في الدفاع عن الإسلام، بل ونشره في باقي المناطق. ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في هذه الأزمة السكانية الحروب بين القبائل التي كانت ميزة المناطق المغربية لعدم وجود استقرار بشري نهائي ولضعف سلطة المخزن، لذلك كلما أحست قبيلة بقوتها إلا وسعت إلى توسيع مجالها وفرض سيطرتها على القبائل المجاورة. وفوق هذا وذاك، نضيف ضحايا الكوارث الطبيعية من مجاعات وأوبئة. هذه الآفات استمرت خلال القرنين 18 و 19، وفي هذا الصدد يقول البزاز: "قبل وفاة مولاي إسماعيل ببضع سنوات، نكبت البلاد بسلسلة من السنوات العجاف تبادت أربع سنوات، من 1721 إلى 1724، وتسببت في غلاء شديد ومجاعة رهيبة بين السكان" ³.

نخلص إلى القول بأن حرب العقاب لم تكن السبب الجوهري ولكونها كانت النقطة التي أفاضت الكأس، والتي بلغ تناقص السكان خلالها ذروته. وعلى الرغم من أن بعض الكتابات تحدثت عن الخصب الكبير ووفرة المياه وكثافة الغابات والأشجار المثمرة، يبدو أن هناك مغالاة ومبالغة في ذلك لأن الريف الشرقي كان ولا يزال يغلب عليه طابع القحولة، وتنتشر به زراعة الشعير الواسعة وتختفي الشجرة بقسم كبير منه، إلا في بعض الأودية الضيقة التي تحمل سفوحها المتدرجة أنواعا عديدة من الغرس كما هو الحال بالنسبة لحوض وادي لمدور والمنحدرات الجنوبية والجنوبية الشرقية لرأس الفرشات الثلاث (رأس هورك). وعلى النقيض من هذا، فالوزان لم يشر إلى هذا الازدهار الفلاحي بقدر ما أشار إلى الوعورة التضاريسية وجفاف المناخ معبرا عن ذلك بقوله: "وهو شديد

² - المرجع نفسه، 1 : 41 .

³ - محمد الأمين البزاز : تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب بين القرنين 18 و 19. منشورات كلية الآداب. جامعة محمد الأول. مطبعة النجاح الجديدة، 1992، الرباط، ص. 35 .

الوعورة، شديد الجفاف يشبه صحراء نوميديا ، ويقل فيه السكان لا سيما بعد أن استولى الإسبان على أهم مدنه" (4) . وهكذا وعلى الرغم من وجود بعض الإشارات هنا وهناك حول تراجع سكان الريف الشرقي (خال من السكان، قليل السكان...) فإننا لا نستطيع تقديم أدلة شافية عن هذا التدهور الديمغرافي وعن الأسباب الحقيقية التي أدت إليه، وذلك لقلة المعلومات الواردة في المصادر ، الشيء الذي يفرض مزيدا من البحث في هذا الباب. لكن هذه الحالة لم تدم طويلا إذ شهدت المنطقة خلال القرن الثامن الهجري تعميرا سريعا بعد أن كانت خالية تعمورها اليوم والذئاب ، وذلك على إثر تدفق الممرينيين على هذه البلاد التي لم تكن غريبة عنهم ، حيث كانوا يشدون الرحال إليها كل سنة ، إذ "كانت طائفة من بني مرين يدخلون بلاد المغرب في زمان الصيف فيرعون به انعامهم ويكتالون منه مبرتهم ، فإذا توسط فصل الخريف اجتمعوا ببلدة كرسيف ، فإذا استوفوا بها جمعهم شدوا رحالهم وقصدوا بلادهم" (5).

ولعل ما يؤكد هذا الانهيار الديمغرافي عزم بني مرين غزو منطقة الريف الشرقي لعدم وجود من يصددهم عنها ، كما يؤكد ذلك صاحب الذخيرة السنية بقوله : "... فدخلت طائفة منهم المغرب ليمتاروا على عادتهم، فوجدوا المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله و فنى خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله ، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب فأقفرت بلادهم فعمرها اليوم والسباع والذئاب... فأقاموا بمكانهم وبعثوا البريد إلى إخوانهم يخبرونهم بحال البلاد وخلاتها وخصبها ونقايتها هوائها وسعة مسارحها ومراعيها و عذوبة مياهها وكثرة أنهارها والتفاف أشجارها وبركات ثمارها... فليس ثم من يصدكم عنها ولا من ينازعكم فيها... حتى إذا وصلوا واد تلاغ، فولجوا المغرب من ذلك الباب بالخيول والإبل والقباب في جيوش كالسيل أو الليل أو النمل أو الجراد المنتشر" (6).

4 - الحسن بن محمد الوزان : وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الشركة المغربية لدور النشر المتحدة. 1980 ، 1 : 270 .

5 - ابن أبي زرع الفاسي : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1972، ص. 25 .

6 - المرجع نفسه ، ص. 63 .

2 - مساهمة الاضطرابات والانقلاب الاجتماعي في تدهور سكان الريف

الشرقي

بالإضافة إلى هذا الانهيار الديمغرافي الذي عرفه الريف الشرقي وما ترتب عنه من تحول سياسي كبير (ظهور الدولة الممرينية) شهدت المنطقة مرة أخرى تناقصا سكانيا خلال الفترة الممتدة بين القرنين 16 و 19 ، وذلك بسبب المجاعات والأوبئة التي عرفت بها البلاد ، بل والمغرب كله حيث ضرب الطاعون معظم الجهات المغربية خلال ثلاثة قرون ، بل وحتى بداية القرن العشرين، وفي ذلك يقول البزاز : "... فقد كانت مجاعة 1776 و 1779-1782 ثم طاعونا 1798 - 1800 و 1818 - 1820 من القوة والشدة ، بحيث أدت هذه الكوارث إلى انهيار ديمغرافي كبير وإحداث هزات عنيفة في القطاعين الاقتصادي والاجتماعي" (7).

ومما لا شك فيه أن هذه المجاعات والأمراض أحدثت خلا في البنيات السوسيو - اقتصادية ودفعت السكان إلى الهجرة في عدة اتجاهات ، نحو الخارج (هجرة الريفيين إلى الجزائر) ، أو نحو داخل البلاد (تطوان وطنجة ومكناس على الخصوص) ، أو إلى داخل المنطقة ، وذلك بحثا عن مجالات أصلح للاستيطان . فعملية الاستقرار لم تكن سهلة ولم تتم إلا بعد صراعات وحروب بين القبائل المستقرة والقبائل الغازية ، يشهد على ذلك كثرة القلاع بالمنطقة ، وبالأخص بالقسم الجبلي الذي كان سكانه ينظرون بعيون شائخة وعدوانية للمناطق الجنوبية ذات المسارح الواسعة والأراضي الفارغة عكس مناطقهم ، التي تشكو من الضغط الديمغرافي ومن ضيق المجال الزراعي وضعف الإمكانيات المحلية . لقد كان هؤلاء السكان يرغبون في تحقيق نوع من التكامل الاقتصادي بين ما تدره عليهم مرتفعاتهم وما يمكن انتزاعه من المناطق السهلية ، التي يبدو أنهم زحفوا إليها وعمروها تدريجيا ، وهو ما يمكن أن نصطلح على تسميته بالانزلاق البشري من الشمال إلى الجنوب.

ولا يمكننا تفسير هذا الانزلاق إلا بقوة لف قلعية وضعف سلطة المخزن - وهي حالة عادية كثيرا ما كانت تتردد بالريف الشرقي - ، التي لم تستطع حماية الرعاة الرحل من زحف هؤلاء المزارعين. وبالفعل فكل أخماس قلعية تملك أراضي سهلي بوعرك والكارث، حيث يبدو أن تملك الأراضي بسهل الكارث حديث هنا. واجه القلعيون جماعة الرحل؛ بني بويحيي. كانت الكارث تستعمل كمراعي وجزء منها كان يستعمل لزراعة الحبوب الواسعة.

7 - محمد الأمين البزاز : مرجع سابق، ص. 21 - 22.

بعض القلعين في بحثهم عن الأراضي استولوا على بعض القطع بالقوة و أرغموا الأفراد أو الجماعات على البيع" (8).

هكذا إذن، يتبين أن العامل الديمغرافي والاقتصادي يعتبر من أهم الدوافع إلى الحروب والحركات السكانية، وهذا يدل على أنه إلى عهد قريب، كانت المجالات الجبلية بالريف الشرقي أهم جيوب التعمير السكاني، وكان السكان يعتمدون عليها في اقتصادياتهم، في حين كانت السهول عبارة عن مناطق تابعة أو كمنتجات ينزلون إليها في فصل معين ويخلونها في فصل آخر، أو كلما سمحت الظروف السياسية بذلك. لكن يبدو أن الظروف المناخية السائدة بالسهول الداخلية وعدم وجود استقرار دائم دفعت بالسكان إلى استعمار هذه المجالات مراعي، ولم يتم إعدادها للزراعة التي كانت متطورة بالمناطق الجبلية ذات الاستقرار والتنظيم القديمين. لكن عند نهاية القرن التاسع عشر بدأت المناطق الجنوبية تشهد تحولات في بنيتها الاقتصادية بانتقالها تدريجيا من الرعي الواسع إلى الزراعة الواسعة، أي الانتقال من نمط العيش القائم على الترحال إلى نمط عيش جديد يقوم على ما تنتجه الأرض، كما يشير إلى ذلك صدون : " خلال القرن التاسع عشر، استطاعت قبائل الجبال أن تتوسع بضم الأراضي الموجودة ببوعركـ والكارت أو شرائها، وتحويلها من أراضي رعوية إلى أراضي زراعية" (9).

لم يكن إذن من السهل معرفة عدد سكان الريف الشرقي خلال القرون الماضية، بل وحتى خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك لأن هذه المعلومات يمكن اقتباسها من كتابات الرحالة والعسكريين الأجانب، لكن هذه المعطيات كثيرا ما تكون بعيدة عن الحقيقة لصعوبة إحصاء السكان وعدم استقرارهم وكثرة تنقلاتهم. إن إحصاء قبائل غير مستقرة دون مجال محدد عملية صعبة لا يمكن الثقة بها حسب مولييراس. وفي الحقيقة إن الأرقام التي يقدمها هذا المؤلف مشكوك فيها أكثر من شكنا في المعطيات العامة الأخرى التي كان يقتبسها من المهاجرين إلى الجزائر.

JAMOUSR. (1977): *Honneur et Baraka. Les structures sociales traditionnelles dans le* - 8

Rif. p. 20

SEDDON D. (1981) *Moroccan Paesants. A centry of change in the eastern Rif.* p : 54- 9

وبالرغم من اختلاف الأرقام التي يوردها مولييراس وغيره، فإن المناطق الجبلية كانت عامرة إلى درجة الإحساس بالحمل البشري مقارنة مع الإمكانات الاقتصادية المحلية، وإلا كيف يمكن تفسير رغبة الفلاحين المستقرين في التوسع على حساب الجهات الجنوبية ذات التعمير الضعيف بسبب الطابع الاقتصادي القائم على تربية الماشية. وهذا ما يذهب إليه سيدون بقوله: " في العشرة الأخيرة من القرن 19 لا حظ بعض الرحالة أن الكثافة السكانية كانت تتراوح بالمناطق الساحلية من 60 إلى 70 نسمة في الكلم 2 ، وذلك على عكس الجنوب، حيث كانت الكثافة مرتفعة بأحواز مليلة إلى درجة إن المساكن كانت متزاحمة"⁽¹⁰⁾. وهذا جدول بتقديرات السكان بالريف الشرقي في نهاية القرن 19 اعتمادا على دلبريل ومولييراس .

تقديرات مولييراس		تقديرات دلبريل		القبيلة
عدد السكان	القوات العسكرية	عدد السكان	القوات العسكرية	
100000	20000	25000	3450	تمسمان
75000	15000	38500	5760	بني توزين وتفرسيت
100000	20000	65000	10900	امطالسة
40000	8000	15000	2250	بني ولشك
80000	16000	29000	4130	بني سعيد
125000	25000	—	—	بني بويحيي
25000	5000	25000	2470	كبدانة
20000	4000	4000	680	أولاد ستوت

DELBRIEL G. (1911) *Geografia General de la Provincia del Rif*, p : 61

-- MOUTIERAS A. (1895) *Le Maroc inconnu. Vol 1 : exploration du Rif*, pp : 111, 118, 154, 129, 137, 141, 173 et 183

⁽¹⁰⁾ SEDDON D. (1981) *op cit*, p : 54-55 .

إذا اعتمدنا تقديرات دلبريل بالنسبة لأولاد ستوت ، مثلاً ، والتي تقدر عدد خيامهم بحوالي 400 (أي حوالي 2.400 نسمة) ، فإن الكثافة السكانية لهذه القبائل ستنزل إلى 6 ن / كلم² ، وإلى أقل من هذا العدد بالنسبة لامطالسة ، والدليل على ذلك أن الكثافة بهذه الأخيرة كانت أقل من كثافة أولاد ستوت في 1940 .

ففي هذه الفترة أصبحت المناطق الشمالية تعاني من ضغط بشري حقيقي حيث بلغت الكثافة السكانية 6، 145 نسمة / كلم² بقبيلة بني بوكافر، و 6، 143 نسمة / كلم² بمزوجة، وفي نفس الوقت عرفت المناطق السهلية تحولات تمثلت في الاستقرار وفي ارتفاع نسبة التعمير ، حيث انتقلت الكثافة السكانية من 9 إلى 19 نسمة / كلم² بامطالسة بين 1930 و 1940⁽¹¹⁾.

و مما يدل على قوة التعمير بقلعية هو أن زيكونزاك ، الذي زار المنطقة عند بداية القرن العشرين (1930) ، اندهش لعدد الرجال الذي يمكن أن تجندهم هذه القبيلة ، و قدر قوتها ب 12000 رجل ، وسجل أنه لا توجد بالريف الشرقي أية قبيلة أخرى تملك مثل هذه القوة العسكرية . وإذا أضفنا عدد النساء والشيوخ والأطفال ، فإن مجموع سكان هذا اللف سيقدر ب 50000 نسمة ، وهو نفس الرقم الذي قدمه دلبريل سنة 1911⁽¹²⁾.

أما بالنسبة لقبائل الريف الشرقي فإن بروسار يقدم هذا الجدول ، الذي يبين تطور السكان ببعض هذه القبائل ، ولا أدري لماذا استثنى بعضها وخاصة قبيلتي بني بويفرور ومزوجة اللتين تشكلان لف قلعية.

تطور السكان القرويين بالريف الشرقي بين 1880 و 1950

القبيلة	1880		1930		1950		نسبة النمو بين 1880 و 1950 (%)
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
كبدانة	9500	—	18000	1.29	23319	1.30	145
بني شيكر	6 إلى 8000	—	14000	1.12	14859	2.98	85.7
بني سيدال	6 إلى 10000	—	12500	0.45	13216	0.27	32
بني بوكافر	25 إلى 4500	—	5500	1.40	5679	0.16	26
تفرسيت	3500	—	5000	0.71	6827	1.57	95
بني سعيد	10 إلى 14000	—	19800	0.79	23387	0.84	67
تمسمان	16000	—	24700	0.87	30492	1.06	90.6
المجموع	حوالي 60000	—	99500	1.016	117779	0.85	96.3

BOSSARD R. (1978) Mouvements migratoires dans le Rif Oriental: le travail en Europe et la province de Nador. p : 68

¹¹ - SEDDON D. (1981) op cit , p : 133

¹² - JAMOUS R. (1977) op cit, p : 17

يتبين من خلال الجدول أن تطور السكان كان بطيئاً ، حيث لم يتضاعف مجموع سكان هذه القبائل السبعة خلال سبعين سنة ، ولم يستزaidوا إلا ب 96 في المائة، أي ب 97 ، 0 في المائة سنوياً . ويعزى هذا إلى الحروب المحلية التي خاضها سكان الريف الشرقي ضد المستعمر الإسباني 1909 — 1912 و 1921 — 1926، وإلى مشاركة الريفيين في الحرب الأهلية الإسبانية 1936 — 1939 ، وإلى تردد السنوات العجاف التي سادت المغرب كله (1934 — 1935 ، 1936 ، 1937 ، ثم 1940 و 1941 و 1942، و أخطر هذه السنوات جميعها كانت سنة 1945 ، التي أحدثت هجرات واسعة بالمغرب عامة وبجبال الريف خاصة . ويقول سيدون عن ذلك : " كانت الظروف عسيرة جداً بالريف الشرقي والأوسط. ففي يونيو من سنة 1945 حوالي 30000 شخص هاجروا مناطقهم نحو اجباله والمنطقة الغربية التابعة للحماية الفرنسية، حيث كانت أقل سوءاً أو شؤماً " (13).

خاتمة

تميز التعمير الديمغرافي بالريف الشرقي خلال مراحل تاريخه بالمد والجزر وفق مجموعة من المتغيرات الطبيعية منها والسياسية والاقتصادية. وقد صاحب هذه التغيرات تحركات سكانية سواء من الجنوب نحو الشمال، أو من الشمال نحو الجنوب، الشيء الذي ترتبت عنه مجموعة من الصراعات حول تملك المجال الذي لم يتم استثماره بطريقة معقولة بحكم عدم الاستقرار الذي ميز هذه المنطقة منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين.

